

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الأستاذ: عقاب بلخير

محاضرات الأدب الصوفي

الفصل الأول

السنة الثالثة ليسانس

جميع الأفواج

2021-2020

تحديد مفهوم التصوف

المحاضرة الأولى

يتحدد المفهوم حسب المحددات التالية:

المنطلقات

- البعد المعرفي في الخطاب الصوفي.
- التأويل باعتباره بنية معرفية منسوخة.
- التحليل الباطني.
- اللغة الشعرية المشحونة. الخطاب الصوفي ورؤية العالم.

التسمية والنزعة

هل التصوف فكر أم إبداع:

فكر = ميل ديني. إبداع = رؤية خاصة للكتابة.

إذن: هناك خصوصية تميزه باعتباره تفكيراً ذا نزعة واتجاه عام.

. (خطأ فهم المدلول الديني والروحي مع التصور المنهجي المناسب) ما أدي لعدم الاهتمام بالمدلول الصوفي وأثره في نمط التاريخ الفكري والأدبي العربي.

الارتباط بالتاريخ الأدبي

- خلو تاريخ الأدب العربي من ذكر الأدب الصوفي، على الرغم من وجود الكثير من النصوص الصوفية في الشعر والنثر.
- لم يتعدَّ فيها أصحابها استخلاص ما هو فلسفي إيديولوجي "صوفي"، مثل الحلولية ووحدة الوجود والفناء و"الحقيقة المحمدية" والمقامات. ومَن حاول الكشف عن أسلوب الكتابة الشعرية الصوفية بقي يحوم حول أنواع الرموز، كالمرأة والخمرة والطلل.

المنابع

- المفهوم الفعلي هو الرؤية الفلسفية وتداخل ثقافات متعددة سيما منها الثقافة الكلامية للمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة سيما إخوان الصفا والمتأدبين مثل أبو حيان التوحيدى.
- دخول نزعات دينية مذهبية.
- وجود فكر مدرسي تجميعي لمختلف العلوم انطبع على التفسير والرؤية إلى الكون والثقافة إجمالاً.

الخطاب الصوفي والحب الإلهي

- وحين أقام المتصوفة علاقتهم بالله على أساس ينزع إلى المباشرة وتجاوز الوسائط (حتى وساطة الوعي بالمفهوم المتعارف عليه) لم يكن المتلقي في ذلك الوقت.
- أثار خطاب الحلاج في الحب الإلهي تيمات أساسية في الفكر والأدب الصوفي، لما أخذته من خلخلة في السياق المعهود لعلاقة الإنسان بالله. ولقد كان لهذا أثر بالغ في الأدب الصوفي لاحقاً، من وجهة كونه أصبح خطاباً ذاتياً له أدوات ورؤاه.
- اعتماد الغزل واتخاذ التأويل وسيلة لتبرير طبيعة التفاعل، التي كانت ثمرتها تأسيس مفهوم الكتابة انطلاقاً من مفهوم الجوهر الأثنوي وفعل الحب ذاته. انخلقت لغة كثيفة رمزية تجمع بين الثقافة الدينية ذات التعدد الفكري وأيضاً التصورات الفلسفية والحلولية الشرقية (المهند، الفرس)..

الخطاب الصوفي العام والخاص

- اتجه ابن عربي إلى خطاب صوفي ثقافي مدرسي واتخذ الغزل وسيلة للتفاعل مع الملأ الأعلى. وهي أولى دلالات قصد التفاعل بين النصّ والمتلقي.
- فرق بين النزعة المدرسية (الطرائق الصوفية) ومفهوم الكتابة الشعرية في أساسه.
- نزعات الصوفية ممارساتية فردية ويظهر ذلك مشرقاً ومغرباً، لكن في المغرب العربي أخذت طابعا جهاديا عمليا.

الغزل والحب الإلهي

- الفرق بين الغزل والحب، الغزل خاص بالمحجوب والحب يمزج المحجوب في رؤية إلهية عامة.
- فالحب الإلهي يصبح مدخلا هاما في النظر إلى الكليات وخلف رؤية إنسانية وافية تقدم تصورا فكريا عن حال العصر والوجود والإنسان، لذلك فهي مقترنة بعالم العلم والرؤية السيكولوجية الباطنية وعالم الذات المتحررة من عقال المادة، واللغة من خلال ذلك اكتسبت معرفية مدرسية مشابحية تخصصت بعد ذلك وفقا لثقافة خاصة مكتسبة من الاتجاهات (الطرق) الصوفية المختلفة.

المصطلح ومفهومه

المحاضرة الثانية

مقدمة

- لقد غلبت الفرق الصوفية بدء من القرن السابع الهجري ونشأت الانكفاء والبحث عن رؤى شخصية وتكتلات تبتعد عن الصراع الفعلي إلى تعبير رافض للمواقف السائدة يلجأ إلى الله.
- يمكن إدراج الصوفية داخل سياق الفرق والطرق، لكونها مثلت اتجاهات كبرى في الموقف الشعبي العام وأثرت على السياسة والدين معا، كما شكلت موقفا تاريخيا من خلال انكفاءها وهروبها من العالم المادي والصراعات التي استمرت عقودا طويلة من التاريخ العربي، وعملت على إحداث استقرار اجتماعي معين.

المصطلح وتحديده

يمكن الاستناد في تحديد دقيق لمصطلح التصوف بعدة أقوال لعلماء الدين والمتصوفة:

قول زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية.

قول الشيخ أحمد زروق: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقهاء لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان. وقال أيضا: وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوده تبلغ نحو الألفين مرجع، كلها لصدق التوجه إلى الله، وإنما هي وجوده فيه .

قول الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني.

قول أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

وَقَالَ صَاحِبُ كَشْفِ الظُّنُونِ: هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ تَرْقِي أَهْلَ الْكَمَالِ مِنَ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ فِي مَدَارِجِ سَعَادَاتِهِمْ.. إِلَى أَنْ قَالَ:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ *** إِلَّا أَخُو فِطْنَةِ بِالْحَقِّ مَعْرُوفُ

وَلَيْسَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ *** وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْمُوفُ

بداية ظهور مصطلح الصوفية

كان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

-الحارث المحاسبي، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه : بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.

-أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة 277 هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

-أبو عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة 325 هـ، ومن كتبه: آداب الصوفية.

-أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة 378 هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.

-أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة 380 هـ، وله كتاب : التعرف على مذهب أهل التصوف.

-أبو طالب المكي، المتوفى سنة 386 هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

-أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة 465 هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.

-أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505 هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين،

بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر -إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

التصوف وعلم الكلام والتأويل

يمكن فهم ذلك من خلال اتجاهات المتصوفة:

- اتجاه أخلاقي يربط التصوف بالسلوك والأخلاق فيقول البعض في تعريف التصوف: "الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني" وأيضا "التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء".

- اتجاه يربط بين التصوف والزهد والعبادة.

يقول ابن خلدون: "إن أصل طريقة المتصوفة لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة".

- اتجاه يربط بين التصوف والمعرفة والمشاهدة ورؤية القلب وهو يعبر عن الاتجاه الروحي، والمجاهدة النفسية التي يجيهاها المتصوف، من أجل بلوغ المرام وهو لذة المشتاق الذي امتلأ بنور الوصل بعد الافتراق، فالصوفي: "من صفى ربه قلبه، فامتلاً قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله".

ويوضح الغزالي طريق الصوفية في المعرفة فيقول: "فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقدم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن القلب.

- اتباعهم للقرآن والسنة.

قول الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام». وقال أيضا: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

قول سهل التستري: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق».

قول أبو الحسن الشاذلي: «إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام».

ومن خصائص التصوف التي تفرقه عن علم الكلام والاشتغال بالتنظير أنه:

- عملي ممارساتي يهتم بالأخلاق والسلوك.

- ينشد المتصوفة العرف (العرفان) التي توصلهم إلى الله، وليس المعرفة التجريبية التي تأتي من خلال المعاينة المخبرية بل إن المعاينة الصوفية تأتي من خلال الحص وصفاء النفس بدون واسطة أخرى.

أهم المدارس الصوفية

التصوّف والمدارس الصوفية مرًا بأربعة مراحل من التشكل والتأسيس:

المرحلة الأولى: التنظير والتأسيس والتنظيم. (القرن الأول الهجري).

المرحلة الثانية: التثبيت والترسيخ (القرنين الثاني والثالث الهجري)، وهي المرحلة التي برز فيها التوجّه نحو الآخرة والعزوف عن الدنيا.

المرحلة الثالثة: مرحلة الثبات وملازمة العامّة ومخاطبتهم بما يفهمون (من القرن 4 هـ حتى 11 هـ). المرحلة الرابعة: مرحلة التجديد نحو العالمية بواسطة قواعد مختصرة ومفهومة. (القرن 12 هـ فما فوق).

ومن أهم المدارس الصوفية نذكر:

- **مدرسة المدينة المنورة:** وكان من أشهر زهادها: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو ذرّ الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وسعيد بن المسيّب، وسالم بن عبد الله.

- **مدرسة البصرة:** وكان من أشهر زهادها: الحسن البصري، ومالك بن دينار، وعبد الواحد بن زيد، وأبو المهاجر رباح بن عمرو القيسي، ورابعة العدوية.

- **مدرسة خراسان:** ومن أشهر زهادها: إبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، وشقيق البلخي، ومعروف الكرخي.

- **مدرسة الكوفة:** ومن أشهر زهادها: الربيع بن خيثم، وسعيد بن جبير، وطاووس بن كيان، وسفيان الثوري.

- مدرسة مصر : ومن أشهر زهادها : سليم بن عنتر التجيبيّ ، وعبد الرحمن بن حجيرة ، وحياة بن شريح الفقيه المصريّ ، والليث بن سعد ، وأبو عبد الله بن وهب بن مسلم المصريّ.

المصطلحات الصوفية

المحاضرة الثالثة

للمتصوفة اصطلاحاتهم التي صارت لغة تخاطب عن الأحوال وأسرارها، وما تبطنه الذات. فقد فاقت تلك اللغة بالرمز والإشارة ما عجزت عنه فصاحة العبارة، فلا بد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم وطرائق تعابيرهم ومصطلحاتهم.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: سمعت سيدي عليا الخواص يقول: إياك أن تعتقد يا أخي إذا طالعت كتب القوم، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفيا، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلوا بها من الكتاب والسنة.

وإنما جاءت مصطلحاتهم بهذا الشكل من الغموض مع ظهور الغايات والمقاصد، لكيلا لا يفهمها إلا من يعرف الطريق إلى ذلك ويؤوله التأويل الصائب الذي لا يزل عن الصواب ولا يحيل إلى مقاصد خارج مقاصد هم.

أنواع مصطلحات الصوفية

تعددت المصطلحات الصوفية بتعدد جوانب الحياة العرفانية التي تتمثل في الطريق والارتحال، والممارسة الوجدانية، والمذهب، والمقامات والأحوال.

- من المصطلحات التي تنتمي إلى "طريق الوصول ومسلكه": السفر، والرحلة، والحج، والسلوك، والسالك، والمقامات، والأحوال، والمجاهدة، والوصول، والواصل، والغاية، والمعراج، والسائر، القصد.
- مصطلحات تنتمي إلى "التجربة الذاتية: التجربة، والرؤيا، النزغ، الغلبة، الهذيان، الخواطر، والوارد، والنقر، والهواجم، والهواجس، الغياب والحضور، التجلي، الستر، النوراني..
- مصطلحات تنتمي إلى "السلوك والطريقة: الإحسان، والإرادة، والحضرة، والفيض، والولاية، وحقيقة الحقائق، والشيخ، والمريد، والقطب، والولاية، والإنسان الكامل، والغوث، وقطب الأقطاب، الطريقة، والمسالك.
- مصطلحات تنتمي إلى "الأحوال" و"المقامات": التوبة والاستغفار، والورع والتقوى، والزهد والخلوة، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضى، والتأمل، والقرب والبعد، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والمشاهدة، بالحس وبالبصيرة.

مصادر المصطلح الصوفي

مصادر المصطلحات الصوفية ومرجعياتها متعددة تتمثل: في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلوم اللغة وعلوم الشريعة وعلم الكلام والفلسفة والآداب والعلوم التجريبية والعلوم الحقة.

- مصطلحات من القرآن الكريم: الذكر، والسر، والقلب، والتجلي، والاستمتاع، والاستقامة، والاستواء، والاصطناع، والاصطفاء، والإخلاص، والرياء، والرضى، والخلق، والعلم، والنفس المطمئنة، والسكينة، والتوبة، والدعوة، واليقين، والله، والنور، والحق. الوحي.
- مصطلحات من الحديث النبوي الشريف: الجلال، الحرام، والخوف، وأهل الذكر، والرداء، والأبدال، والأوتاد، والغوث، والنجباء، والنقباء. الأخيار، الأطهار، الكرام.

- **مصطلحات من النحو:** الغياب، والحضور، والمعرفة، والاسم، والحال، والمعرفة، والرسم، والعلة، والصفة، والشاهد، والإشارة، والواحد، والجمع، والوصل والفصل.
- **من المصطلحات التي أخذت من علم الكلام:** التوحيد، والعقل، والعدل، والعرض، والجوهر، والذات، والصورة، والتنزيه، والقاسم، والثبوت، والوجود، والأزل.
- **مصطلحات من الفلسفة:** العقل والنفس والحس والهوى والعقل الأول والفيض والنفس الكلية والنظر.
- **مصطلحات أخذت من المدارس والتفكير:** علم الحروف والأعداد، العلوم الكونية، علم التفسير، العلوم المختلفة أوّلت واستعملت في إطار عام غير مرتبط بمجال اختصاصه كعلم التنجيم والطلاسم وغير ذلك.

مصطلحات التي تنتمي إلى التراث الشعري:

- **المرأة:** غزال، ريم، غادة، سهم، الحسن، العشق/ الحمام...
- **الطلل وملحقاته:** ذكر الحبيب: الربيع، الدارس، المها، الرحلة.
- **الخمرة وملحقاتها:** الشراب، العنب، القهوة، الندامي، الصبابة، الغياب.

شرح بعض من المصطلحات (الرموز) الصوفية:

- **التجلي:** ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب وإقبال الحق على قلوب المقبلين عليه، ولا يتسلط عليه تعبير أو يحويه فهم، والتجلي بالنسبة للحق شأن آلهي وبالنسبة للعبد حال.
- **الجبروت والعظمت:** عالم العظمة يعني عالم الأسماء والصفات الإلهية، وقيل هو عبارة عن الذات القديمة، وعند الأكثر عالم الأوسط وهو البرزخ المحيط بالأمريات الجمّة.
- **الحال:** ما يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض وتسمى الحال بالوارد أيضاً، ويحول بظهور صفات النفس.
- **الحضور:** حضور القلب بالحق بصفاء اليقين وإن كان غائباً عنه.
- **الحقيقة:** سلب أثر أوصاف العبد عنه بأوصاف الله بأنه هو الفاعل في العبد والحق هو الذات والحقيقة هي الصفات.
- **الخواطر:** الخواطر: ما يرد على القلب والضمير من الخطاب مع سرعة زواله بخاطر آخر وقدرة صاحب الخاطر على دفعه عن القلب مراراً.
- **الدنيا:** هي ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهي حظوظ النفس وما تلذذ به.
- **الروح:** الروح: معنى يحيى به الجسد، وهي شيء موجود استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه.
- **الرؤية:** هي المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة حيث كان، أي في الدنيا والآخرة، وقيل لا يُرى الله في الدنيا بالأبصار إلا من جهة الإيقان.
- **السيوحية:** من صفات الحق لأنه يُسبَّح.
- **الستر:** كل ما سترك عما يعينك مثل الوقوف مع العادات أو نتائج الأعمال.
- **السر:** السر ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق، وسر السر ما انفرد به الحق عن العبد كالعلم بتفاصيل الحقائق.
- **السرمدية:** صفة الله تعالى، والسرمدية ما لا أول له ولا آخر، والأزلي ما لا أول له، والأبدي ما لا آخر له.

- السكر: غيبة بوارِدٍ قويٍ مفرِحٍ وهو أقوى من الغيبة وأتم منها.
- المشاهدة: رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ورؤية الحق ببصر القلب، من غير شبهة ولا ارتياب كأنه رآه بالعين.
- المقام: ما يقوم به العبد بين يدي الله عز وجل بالمجاهدات والرياضات والعبادات، ولا يرتقي منه إلى غيره ما لم يستوفِ أحكام المقام السابق.
- النورانية: عالم النور وهو عالم تجلّي الله، أي وجوده الظاهر في صورة الأكوان كلها.
- الولي: من تولى الحق أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة، حفظه من العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، قال الله تعالى: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

نبذة عن تاريخ الطّرق الصّوفية في الجزائري

بين التصوف العلمي والتصوف الشعبي

المحاضرة الرابعة

بدايات التصوّف في الجزائر:

أولاً: عصر الفاطميين (296 هـ - 567 هـ)

لقد كان أول ما عرفت الجزائر بدعة التصوّف في عصر بني عُبيد، الذين ادّعوا التّسبب الفاطميّ مضمونُ التصوّف المختلط بالفلسفة.

وقد بيّن ابن خلدون في مقدّمته أنّ الصوفية كانوا مخالطين للإسماعلية الباطنيّة".

ويؤكدها أيضاً الشّيخ مبارك المليبي في "تاريخ الجزائر" (ص 720) لكن مع بيان موقف العلماء المسلمين من فكرهم وعقائدهم، فقال رحمه الله: "وقد عرفت الجزائر التصوّف زمن بني عُبيد، لكنّ العلماء أنكروا عليهم، وكفّروهم، حتّى قال محمّد بن عمّار الكلاعي الميورقي يوصي ابنه في قصيدة:

وطاعة من إليه الأمر فالرم *** وإن جاروا وكانوا مسلمينا

فإن كفروا ككفر بني عبيد *** فلا تسكن ديار الكافرينا "

ثانياً: عصر المرابطين (480 هـ - 541 هـ)

واستمرّ رفض العلماء المالكيّة وغيرهم للعقائد الصوفية بعد زوال دولة بني عبيد عن المغرب العربيّ، وظهر هذا الرّفص جلياً بما اشتهر من فتاوى المالكيّة بإحراق كتب الغزاليّ لما دخلت المغرب، وعلى رأسها "إحياء علوم الدّين"، وأمر ابن تاشفين بذلك.

فقد أنكروا على الغزالي ما في كتبه من فلسفة وتصوّف غال، وقد أشار إلى ذلك الغزاليّ نفسه في مقدّمة كتابه "منهاج العابدين" (ص: 56)، لكنّ الغزاليّ (الذي دخل في بطن الفلاسفة، ثمّ أراد أن يخرج منهم فما قدر) - كما قال ابن العربي - أرجع سبب قرح القادحين إلى أنّ الإحياء احتوى دقائق اعتاصت على أفهامهم.

ثالثاً: عصر الموحّدين (515 هـ - 668 هـ)

"وبقي الأمر على ذلك، حتّى جاءت دولة الموحّدين التي نشرت كتب الغزاليّ" كما قال الشّيخ مبارك المليبي رحمه الله، ونشر الموحّدين لكتب الغزاليّ أمر مشهور في التاريخ، على أنّه لم يكن مقتصرًا على كتب السلوك، بل شمل نشر كتب أصول الفقه، وأصول الدّين؛ لأنّ ابن تومرت كان قد تتلمذ على الغزاليّ وتأثر به.

ويؤكد الشيخ الميلّي رحمه الله على دور الدولة الموحدية في نشر بدعة التصوف فيقول: " فلم يكن يومئذ بالمغرب شأنٌ للتصوفية إلى أن جاءت الدولة المؤمنية، ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة، فظهر من الصوفية رجالٌ ذوو علم طار صيتهم في الآفاق ".

أعلام التصوف في المرحلة الموحدية

ذكر الشيخ الميلّي في كلمته التي نقلناها أنه ظهر من الصوفية في عهد الموحدين رجالٌ ذوو علم طار صيتهم في الآفاق، ولذلك عُرف التصوف في أول مراحلها بأنه تصوف علمي، لا يصل إلى فهمه إلا من له باع في الفلسفة، فبقي تصوفاً علمياً، أو تصوفاً خاصاً بالتخبة كما يعبر عنه في الاصطلاح المعاصر، ومن هؤلاء المشاهير الذين عرفتهم الجزائر:

1- أبو مدين شعيب الأندلسي: دفين تلمسان المتوفى سنة (591 هـ/1194م):

قرأ على ابن حزم وغيره، وأخذ التصوف عن أبي يعزى يلنور بن ميمون (ت:572) (وهو من المغرب الأقصى)، ويقال: إنه لقي في عرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكان قد استوطن بجاية ودرس فيها رسالة القشيري وغيرها، ولما كثر أتباعه وذاع صيته، استقدمه يعقوب بن يوسف المنصور الموحد (ت:595) إلى مراكش، فلما بلغ تلمسان توفى بها.

2- عبد السلام بن مشيش (ت: 625 هـ/1228 م):

وهو عبد السلام بن سليمان المعروف بمشيش، أخذ طريق التصوف عن أبي مدين شعيب، وعبد الرحمن بن حسن العطار الشهير بالريّات، ومن آثارها: دعاء المشيشية، مات مقتولاً في شمال المغرب الأقصى.

3- أبو الحسن الشاذلي (ت: 655 هـ/1258 م):

وهو علي بن عبد الله المغربي الأصل، نُسب إلى شاذلة -وهي قرية بتونس- لإقامته بها. أخذ التصوف عن ابن مشيش في المغرب، وأقام مدّة في تونس، ثم انتقل إلى الإسكندرية بمصر حيث نشر مذهبه.

وصار له أتباعٌ عُرفوا بالدراويش وبالفقراء -والدرويش: كلمة فارسية معناها القانع والفقير -، وله أحزابٌ تتلى منها: حزب البحر، وتؤي بأرض الحجاز، وإليه تنسب الطريقة الشاذلية، وسيأتي الحديث عنها وعن طوائفها الكثيرة في الجزائر.

4- محيي الدين بن عربي الأندلسي (ت: 633 هـ/1240 م):

وُلد في مرسية بالأندلس، ودرس بإشبيلية الفلسفة، وقد كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات، ويستعمل في كلامه عبارات غامضة، وأحياناً يستعمل عبارات صريحة في الكفر، والقول بالانحاد، كقوله: " التثليث أساس الوجود، ومع أنّ الله في اعتقادنا فردٌ، فأول عدد فردي ثلاثة لا واحد ".

زعم أن الولاية أعلى رتبة من النبوة، وأنه خاتم الأولياء. وأتباعه يلقبونه بالشيخ الأكبر. رحل إلى المشرق، وأقام في بجاية مدّة، واستقر في دمشق، وتوفى بها.

5- عبد الحقّ بن سبعين (ت: 669 هـ / 1269 م):

فيلسوف أندلسي، أخذ التصوّف عن أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمّد بن الدهّاق، وانتقل إلى سبتة، ثم طُرِدَ منها، فسكن بجاية مدّةً، وأقرأ بها، ثمّ لحقّ بالمشرق، وبقي بمكّة إلى وفاته. ومن كلامه: "شعيبُ عبدُ عملٍ، ونحن عبيدُ حضرة". وهو من القائلين بوحدة الوجود. من أعلام التصوّف العمليّ (الرّهدي) بعد الموحّدين.

عُرِفَ هذا الجانب من التصوف بالرّهدي، أو ما يسمّى عند البعض بالتصوّف السّيّ، أو التصوّف العملي لا الفلسفي.

وتبّى هذا الاتجاه جمهوراً من الفقهاء العلماء البيهدين كلّ البُعْد عن الفلسفة وزنادقتها ومن أعلام هذا الاتجاه: الشّيخ الفقيه الرّاهد أبو زيد عبد الرّحمن بن محمّد الثّعالبي (ت 875 هـ / 1471 م):

وُلِدَ في مدينة يسر، وطلب العلم في بلده، ثمّ في بجاية، فلقني بها أكابر أهل العلم في زمانه، ولم يقنع فرحل إلى تونس، ثمّ مصر، ثمّ تركيا، ثمّ الحجاز، وقفل راجعاً إلى وطنه بعد رحلة طويلة في طلب العلم.

واستقر بالجزائر العاصمة، حيث عكف على نشر العلم تدريسا وتأليفا، فتخرّج على يديه كثير من العلماء، من أشهرهم: محمّد بن يوسف السنوسي، ومحمّد المغيلي التلمساني، ومحمّد بن مرزوق الكفيف، وأحمد الزّروق، وأحمد بن عبد الله الزّواوي.

وإلى عصر هذا الشّيخ الذي اشتهر بالرّهدي، وكثرت مؤلّفاته في الوعظ والرّقائق، لم تنتشر الطّرق الصوفية، وإنّما انتشرت هذه الطّرق في عصر تلاميذه، أي: في القرن العاشر الهجريّ.

ظهور الطرق الصوفية أو التصوف الشعبي.

ظهر ابتداءً من القرن العاشر الهجريّ ما يُسمّى بالطّرق الصوفية، الذي قام على مبدأ إعطاء الأتباع العهد والمواثيق للشيوخ، حتى يلتزموا بطاعة الله وطاعة الشّيخ.

وقد ربّ من أسّس هذه الأحزاب ترتيباً يتدرّج فيه المسلم الذي يريد الوصول إلى درجة الإحسان في العبادة وإلى ما هو أعلى منها فمن حضر وهو يريد الدّخول إلى طريقة الشّيخ يسمّى تلميذاً، فإذا دخل وكان في أوّل الطّريق يسمّى مريداً، فإذا طال به العهد واختاره الله لحبّه صار فقيراً، فإن تقدّم به الحال إلى ما يسمّى بالمكاشفات فهو السّالك، وإن وصل إلى مرحلة الفناء وفقدان الوعي والانجذاب إلى الله تعالى فهو المجذوب.

التعريف ببعض الطرق الصوفية بالجزائر:

1- الطّريقة القادريّة.

تُنسب هذه الطّريق إلى الشّيخ عبد القادر الجليلي (ت: 561 هـ): الفقيه البغدادي الرّاهد المعروف، صاحب "العُنية" وغيرها، وقد كان لهذه الطّريقة التي ظهرت في المشرق عدّة فروع تتصل بالزاوية الأمّ ببغداد.

وكان للطريقة القادرية في الجزائر عدّة زوايا في زمّورة، والشّلف، وتيارت، والوادي، وورقلة، والأوراس، وكننتة. وقد أبلغها الدكتور سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" إلى 33 زاويةً في نهاية القرن التاسع عشر، ينتمي إليها 25 ألف مريد.

ولهذه الطريقة وزدٌ تميّز به، منه ما يتعلّق بالذكر بعد الصلوات، ومنه وزدٌ يوميّ. ويلاحظ أنّ هذه الأوراد في أصلها مشروعة، لكنّ اعترتها البدعية من ناحية التخصيص بالأوقات والتحديد بالأعداد، كقول "لا إله إلا الله" 500 مرّة في اليوم، والصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم 121 مرّة في اليوم، والاستغفار بعد الصلاة 100 مرّة، مع أنّ المأثور عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو الاستغفار ثلاثاً.

2- الطريقة الرحمانية.

مؤسس هذه الطريقة هو محمّد بن عبد الرحمن الأزهرى (ت: 1208 هـ/1793 م).

كان قد جلب الطريقة الخلوتية من المشرق وطوّرها فنُسبت إليه، وذلك في سنة (1188 هـ/1774 م)، وكان لهذه الطريقة 220 زاويةً تضمّ ما بين 130 إلى 160 ألف مريدٍ قبل نهاية القرن التاسع عشر، ولذلك كانت تُعتبَر من أوسع الطرق انتشاراً في الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، وقد تراجع ذلك النفوذ كثيراً بفضل الدعوة الإصلاحية المباركة التي نشرتها جمعيّة العلماء المسلمين.

وشيخها المعروف بصاحب القبرين، أحدهما: في موطنه ومقرّ زاويته ببني إسماعيل دائرة بوغني ببلاد القبائل. والثاني: في مقبرة سيدي احمد بالعاصمة.

ولزاويته فروغٌ في الشّرق والجنوب، من أشهرها: زاوية "الهامل" ببو سعادة، التي تحمل لواء الطريقة في هذه الأيام، ومنها زاوية الحملاوي وباشتارزي في قسنطينة، وحنقة سيدي ناجي ببسكرة.

3- الطريقة التجانية.

تنسب إلى مؤسسها: أحمد بن محمّد التجاني (ت: 1230 هـ/1814 م)، وهو من مواليد عين ماضي بالأغواط عام (1150 هـ/1737 م).

ارتحل إلى فاس، وتلمسان، وتونس، والقاهرة، ومكّة، والمدينة، وبغداد، وأخذ الطريقة القادرية والطيبية والرحمانية والناصرية والمدنيّة والخلوتية.

وفي عام 1196 م قرّر إنشاء طريقةٍ خاصّة به، وكان يومها بفاس المغربية، ثمّ اتّخذ عين ماضي مقرّاً للخلافة العامة للطريقة، التي صار لها أتباعٌ في وسط وغرب إفريقيا. وقد أحصى لها الفرنسيون في الجزائر نهاية القرن التاسع عشر 32 زاوية و25 ألف مريد.

وتميّز هذه الطريقة بصلاة "الفتاح" التي يزعم التجاني أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم علّمه إيّاها في المنام، وأنّها من كلام الله تعالى، وقراءتها خيرٌ من قراءة القرآن! وأنّ من داوم على قراءتها دخل الجنة بغير حساب! ولأجل هذا أفقّى الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى بكفر من انتمى إليها، بناءً على هذه العقائد الباطلة.

4- السنوسية الطوكوكية.

الطريقة السنوسية تُنسب إلى محمد بن علي السنوسي المستغامي (ت: 1859 م) الذي أخذ مجموعةً من الطرق في الجزائر، والمغرب، ومنها الشاذلية، ثم استقر في ليبيا، وأسس عام 1843 م هذه الطريقة التي تُنسب إليه، وشرع في الدعوة إليها من هناك.

أسس في حياته 22 زاويةً، منها: زاوية جغبوب التي توفي بها، وهي طريقة صوفية لا تختلف عن بقية الطرق بأدكارها المتدعة، وحضرتها المستقبحة.

وبعض الناس يبالغ في الثناء عليها، وربما وصفها بالسلفية لاعتماد صاحبها على رواية الحديث النبوي، وخروجه في بعض المسائل الفقهية عن اختيارات خليل صاحب "المختصر"، وكذلك بناءً على مواقف أتباعها تجاه الاستعمار الأوروبي، وذلك لا يُخرجها عن حقيقتها الصوفية في السلوك والاعتقاد.

وقد اتبعت هذه الطريقة سياسةً حاولت من خلالها استيعاب مريدي الطرق الأخرى؛ فأباحت تعدد المشايخ والانتماء؛ ولذلك كثر أتباعها في إفريقيا وآسيا، وليس لها في الجزائر إلا زاوية واحدة سمحت فرنسا بتأسيسها (عام 1859)، وبقائها، وهي: زاوية ابن طكوك في مستغانم.

5- الشاذلية.

تنسب هذه الطريقة إلى أبي الحسن الشاذلي الذي سبق أن تحدثنا عنه، وقد عرفنا شيخه وسنده، فقد كان ينتسب إلى ابن مشيش، لكن سرعان ما استقل عنه، وأصبح يستمد من عالم الروحانيات مباشرةً.

وقد انتشرت طريقته عن طريق خليفته أبي العباس أحمد المرسي (ت: 686 هـ) الذي كان يقول عن نفسه: "والله لو حُجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عينٍ ما عدت نفسي من المسلمين!" ثم عن طريق تلميذ هذا الأخير: ابن عطاء الله السكندري (ت: 709 هـ).

ومن خصائص هذه الطريقة في الذكر اليومي في الصباح والمساء: الاستغفار 100 مرة، والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم 100 مرة، وتكرار الشهادة 100 مرة، وحضور الحضرة مرة في الأسبوع على الأقل، وزيارة المقدم والحديث إليه مرة في الشهر على الأقل. كما أن للشاذلي أوراها وأحزاباً تُنسب إليه يتلوها أتباعه، ويتقربون بها إلى الله عز وجل.

ولهذه الطرق أكثر من عشرين فرعاً مُنشقةً عنها، الذي وُجد منها في الجزائر: الزروقية، واليوسفية، والعيساوية، والكرزازية، والشيخية، والناصرية، والطيبية، والزبانية، والخصالية، والحبيبية، والمدنية، والدراوية، وإضافة إلى السنوسية التي تُعتبر مستقلةً عنها تماماً.

6- العيساوية.

وهي طريقة أسسها محمد بن عيسى (ت: 933 هـ/1526 م) دفين مكناس، وانحرف بها عن الشاذلية الجزولية. وقد اشتهرت بأعمالها السحرية، والحركات البهلوانية، وهم يزعمون أنّ أعمالهم معجزاتٌ إلهية، وقد عُدُّ أتباعها في الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر بـ 3.5 ألف، مورعين على 13 زاوية في وزرة بالمدينة، والرّمشي قرب تلمسان، وقسنطينة، وعتّابة، ولا يزال لها أتباع في الجزائر إلى يومنا هذا.

- الهبرية.

أسّسها محمد الهبري الإدريسي (ت:1901) في الرّيف المغربي، وزعم أنّه يريد تجديّد الطّريقة الدرقاوية، ومن أقواله: "لا يدخل طريقتنا إلّا من كان مكتوباً من السّعداء في اللّوح المحفوظ أو شريفاً!"

وكان له أتباع في الغرب الجزائريّ. خلفه ولده محمد الهبري الصّغير (ت:1939) الذي كان موالياً لفرنسا.

المحاضرة الخامسة

تحليل قصيدة الفقراء للغوث أبي مدين التلمساني دفين تلمسان المتوفى سنة (591 هـ/1194م)

مَا لَنَ لَذَّةَ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا
فَأَصْحَابُكُمْ هُمْ وَتَأْدَبُ فِي مَجَالِسِهِمْ
وَاسْتَعْنِمِ الْوَقْتَ وَاخْضُرْ دَائِمًا مَعَهُمْ
وَلَا زِمِ الصَّمْتَ إِلَّا إِنْ سُئِلْتَ فَمُنْ
وَلَا تَرَى الْعَيْبَ إِلَّا فِيكَ مَعْتَقِدًا
وَحُطَّ رَأْسُكَ وَاسْتَعْفِرْ بِلَا سَبَبٍ
وَإِنْ بَدَأَ مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرَفْ وَأَقِمْ
وَقُلْ غُيْبَ نِيَّتِكُمْ أُولَى بِصَفْحِكُمْ
هُمْ بِالتَّقْضِيلِ أُولَى وَهُوَ شِيمَتُهُمْ
وَبِالتَّغْنِي عَالِي الإِخْوَانَ جُدْ أَبَدًا
وَرَأَيْتُ الشُّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى
وَقَدِمَ الْجِدَّ وَانْهَضَ عِنْدَ خِدْمَتِهِ
فَفِي رِضَاهِ رِضَا الْبَارِي وَطَاعَتِهِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ
مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنْسَى لِي بِرُؤْيَيْهِمْ
مَنْ لِي وَأَنْسَى لِمِثْلِي أَنْ يَزَاحِمَهُمْ
أَحَبَّهُمْ وَأَدَارِيهِمْ وَأَوْثَرَهُمْ

هُمَ السَّالِطِينَ وَالسَّادَاتُ وَالْأَمْرَا
وَحَلَّ حَظَّكَ مَهْمَا خَلَّفُوكَ وَرَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَى قَدْ خُصُّ مَنْ خَضِرَا
لَا عِلْمَ عِنْدِي وَكُنْ بِالْجَهْلِ مُسْتَتِرَا
عَيْنًا بَدَأَ بِيَّ نَأْ لِكِنَّهُ اسْتَتِرَا
وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنصَافِ مُعْتَدِرَا
وَجَهْ اغْتَدِرْكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرَا
فَسَاحُوا وَخُذُوا بِالرُّنْقِ يَا فُقَرَا
فَلَا تَخَفْ دَرَكًا مِنْهُمْ وَلَا ضَرَرَا
جَسًّا وَمَعْنَى وَغَضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثِرَا
يَرَى عَلَيْكَ مِنْ اسْتِخْسَانِهِ أَثَرَا
عَسَاهُ يَرْضَى وَحَازِرُ أَنْ تَكُنْ ضَجْرَا
يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مَنْ تَرَكَ حَذْرَا
وَحَالُ مَنْ يَدْعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى
أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنَ مِنِّي عَنْهُمْ خَيْرَا
عَلَى مَوَارِدِ لَمْ آلفَ بِهَا كَدْرَا
بِمَهْجَتِي وَخِصُوصًا مِنْهُمْ نَفْرَا

مع الاستعانة بشرح أبي عطاء الله السكندري في رسالته: عنوان التوفيق في آداب الطريق

تتمظهر في هذا النص علامات أساسية تشكل لب الموضوع وبنيته التي تتخذ من معرفية صوفية متكامل أطرافها بتكامل خصائص موضوعها وهو مجالسة الشيوخ العارفين واتباع مسلكهم من خلال الاقتداء بهم وطرق ذلك للوصول إلى الغايات وتحقيق الأمنيات. ولعل اللغة الصوفية تنأى عن المقصد المباشر لتلحقه بمقصد عرفاني يستمد جذوره أي روحه من خالص النص القرآني وينتهج نهج الحب والخلوص والخضوع بالطاعة والاستماع، وبالألفة والانصياع، وبالهدى والاتباع، وبالمكابدة والخضوع لغاية الارتقاء. هي لغة الإشارة وحساسية التعبير مع مقصدية الفكرة ودقة التصوير الروحاني الخالص البين الذي يرقى بروح اللغة إلى مدارج عليا من السرحات.

يمكن لنا أن نقسم هذا النص إلى ثلاث بنى مركزية عليها تقوم فكرة الفقراء كإيقونة دالة على المحتوى المعرفي لهذا النص:

الصفات العليا:

الفقير — السالكين — الشيخ

الفقراء — سلاطين، سادات، أمراء

الفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن العلائق، المعرض عن العوائق، لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه.

فمثل هذا مصاحبته تذيبك لذة الطريق، وتريق في جميع فؤادك من شراب القوم أهني رحيق، ويعرفك الطريق، ويقطع لك العقاب ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بممته ويرفعك إلى أعلى الدرجات، ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة، والسيد على أهل الطريقة، والأمير على أهل البصيرة.

آداب الصحبة

التأدب: وتأدب معهم في مجالستهم فإن الصحبة شبح، والأدب روحها.

أخذ الحظ بصحبتهم، ومن أهم آداب الصحبة أن تخلف حظوظك وراءك ولا تكن همتك مصروفة إلا الامتثال أوامرهم فعند ذلك يشكر مسعاك.

الاغتنام، الحضور: واستغنم الحضور وأخلص في ذلك ترفع درجتك وتعلو همتك والقصور.

الصمت: وهو نوعان: صمت باللسان وصمت بالجنان وكلاهما لا بد منه في الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلى له سره، وكلمه ربه، وهذا غاية الصمت.

الجهل: مهما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلك لاحت لك معرفة نفسك، فإذا عرفتها عرفت ربك.

محاسبة النفس في عيوبها المستترة: فإذا تحققت بأوصافك وشهدت لنفسك عيوباً لكنها مستترة، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك.

وقف على قدم الإنصاف من ذنوبك خجلا من سيئاتك وعبوبك، فإن من عامل المخلوق هذه المعاملة أحبته ولم يشهد له ذنباً وكانت مساويه عنده محاسن.

التواضع والاستغفار: ومع اعترافك واستغفارك أقيم وجه اعتذارك عما جرى منك فيكون ذلك ممحياً للذنوب وأدخل في القبول.

الإنصاف مع الاعتراف والاعتذار، الصفح والمسامحة مع الرفق: فساحوا غيبيدكم يا فقرا، وخذوا بالرفق وعاملوني به، فإني عبد فقير لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي إلا على الفضل.

لا بحولي ولا بقوتي، مذهبي العجز والسلام.

التفضل، التغني بمعنى الشكر والإشادة حسا ومعنى ظاهرا وباطنا: وتكرّم على إخوانك، وجُد عليهم أبدا، أما في الحِسِّ فيبذل الأموال، وأما في المعنى فبصرف همّة الأحوال، ولا تبخل عليهم بشيء يمكنك إيصاله إليهم، فإن السماح لبُ الطريق، ومن تخلّق بما فقد زال عن قلبه كل تعويق.

غض الطرف: التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا أتمَّ له هذان سلم صدره من العلائق، وزال عن طريقه كل عائق؛ أي تحقق بأوصافك من ففرك وضعفك وعجزك وذلّتك، فإذا تحققت بأوصافك وشهدت لنفسك عيوباً لكنها مستترة، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك.

مراقبة أحوال الشيخ: الاجتهاد والنشاط والخدمة لطلب الرضى من الشيخ، رضاه من رضى الباري، فاستقم في رضاء شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته. وعُضَّ بالنواجذ على خدمة الشيخ إن ظفرت بالوصول إليه، واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك، إذا عرفك الله تعالى به، وأطلعك تعالى عليه فإن الظفر به.

صفات المتصوفة ووجوب اتباع مسلكهم:

- مواردهم لا يزارهم فيها أحد.
- حبههم ومداراتهم وإيثارهم.
- مجالسهم معطرة بحسن عشرتهم والأخذ عنهم من خلال سلوكهم.
- حسن التألف سمة أخلاقهم.
- هم الأهل ومقر الحال واستراحة النفس بمآل الجلوس إليهم والاعتزاز كله.

يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرقا مجيدة تدل على الطريق ويسير في سلوكه سيرة حميدة، فلذلك جمعوا أحسن تأليف، حتى راق كل ناظر وجدوا في أكمل معنى لطيف، حتى اكتحلت بكحل إثمدهم أنوار البصائر وكذلك قال الشيخ رضي الله عنه بعد ذلك (هم أهل ودي وأحبابي) إلى آخره، فإن الشخص لا يجب إلا من جانسه ولا يود إلا من كان بينه وبينه مؤانسة .

الشعر الصوفي عند الأمير عبد القادر الجزائري

المحاضرة السادسة

هو الشيخ عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الجزائري الحسني، يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي (1222/1808)، ولد في قرية القيطنة التابعة لوهران، من عائلة مرابطية كريمة مشهورة بالفضل والكرم حفظ القرآن، وتعلم مبادئ العربية على يد أبيه، ثم قرأ على الشيخ أحمد بن طاهر القرآن والحديث وأصول الشريعة، واستكمل فنون العلوم في وهران، فدرس الفقه والحديث والفلسفة والجغرافيا والتاريخ، ونال شهادة حافظ. اشتهر في صباه بشدة البأس، وقوة البدن، والفروسيّة؛ بايعه رؤساء القبائل العربية سنة 1832/1248 بعد أبيه على نصرته الإسلام، ولقبوه بناصر الدين، فجمع كلمتها، وخاض المعارك دفاعاً عن استقلال المغرب العربي، وانتصر في معركة وهران. عقد مع الفرنسيين معاهدة 1834/1250 وتفرغ للإصلاحات الداخليّة، ونظّم دولته على أسس قوية، وأقام جهازاً إدارياً مسلسل الرئاسات، ونظّم القضاء، وأسّس مجلساً ثورياً، وأنشأ مصانع الأسلحة والبارود، وملابس الجند، وجمع الزكاة، وبنى مدينة (تقدمة) وكثيراً من المعامل، وافتتح المدارس، وضرب النقود (المحمديّة) ونظّم جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي توفي بدمشق، ودفن بالصالحية، ونقلت رفاته إلى الجزائر بعد الاستقلال .

ألف في التصوف كتاب: (المواقف) و(المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) و(ذكرى الغافل وتنبية الجاهل) وكانت له قدم راسخة في الشعر، جمع شعره في ديوانه (نزهة الخاطر) ونشر زكريا عبد الرحمن صيام (ديوان الأمير عبد القادر الجزائري) سنة 1978.

كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد

يقع الكتاب في ثلاثة مجلدات كبار يجوي (1416) صفحة من الحجم الكبير، طبعة دار اليقظة العربية، الطبعة الأولى سنة 1329 هـ 1911م والطبعة الثانية سنة 1386 هـ 1966 م كتب على الغلاف الداخلي: هذه الطبعة

بوت ورتبت بالاستناد الى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط المرحوم السيد الأمير عبد القادر الجزائري، وقوبلت على نسخة عالم الشام الكبير المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي المحفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق، ونسخة الأستاذ العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار المحلاة هوماشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط المرحوم الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها وتصحيحها لجنة من أكابر وأفاضل علماء دمشق، كلفتهم دار النهضة خصيصاً لهذه الغاية الكريمة وكتب في الصفحة التي تليها:

طبع هذا الكتاب بموافقة وإشراف حفيده الكبير: الأمير محمد سعيد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الذي سار على نهج جده الأمير عبد القادر في التضحية والجهاد والنضال المستمر في سبيل الإسلام وخدمة الإنسانية.

ثم وضعت صورة للسيد الأمير وهو يرتد اللباس العسكري الجزائري، وهو ثوب ومن فوقه عباءة (برنس) جزائري وقد رصع بالنياشين والأوسمة، تعلوه الهيبة والوقار، وقد نظر لجهة اليسار وكأنه الصقر، ومن تمنع بالصورة شعر بالمدد يخرج منها.....

وجملة المواقف في الكتاب (372) موقفاً، بدأ الأمير موقفه الأول بشرح لقوله تعالى: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقد تلقاها الأمير تلقياً غيبياً، وحتم الكتاب بكلام على الرؤيا، ورضع الكتاب ببعض القصائد من نظمه، وجدير بالذكر أن الأمير يقول في الكتاب: أن الله تعالى عوّده أن يلقي إليه الآية إلقاءً غيبياً، فيغيب عن حسه ثم يتلقى الكلام الأربلي القديم، ثم يصحو وهو يردد الآية الشريفة وتسمى هذه الكيفية (الاستظهار) استظهار جميع آيات الكتاب العزيز.

يشير أحد الدارسين:

أن "الأمير عبد القادر أسس في أواسط القرن التاسع عشر نثراً عربياً فصيحاً كان مجهولاً تماماً، يتجلى من خلال النثر الفلسفي الذي فرضه عليه التفكير التصوّفي الذي كان ملماً به، ومن خلال هذا الإمام ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر كتابة أخذت من كتابة النثر حصة ومن الشعر حصة أخرى أسست في ما بعد المواقف القادرية التي هي مزيج بين التفكير الفلسفي والدين والتصوف والتاريخ والإبداع الشعري، وبذلك يكون الأمير عبد القادر قد أسس من خلال هذه المواقف القادرية أسلوباً جديداً للكتابة، تتراوح بين الشعر والنثر وهي في العموم، دراسات لم تأخذ مكانتها في الأوساط الأدبية، وبين الباحثين تتوجب الدعوة إلى ضرورة البحث والتمعن في ما ترك الأمير من أعمال أدبية تحمل بين طياتها أسلوباً للكتابة، لم يأخذ حقه من الانتشار والتمعن والاحتراف بعد.

المحاضرة السابعة

عرض تحليلي:

هذه قصيدة من كتاب الأمير عبد القادر "المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد" تتجلى فيها نزعة التصوفية، وثقافته المتعددة

المنازع وكذلك مذهبه وفنه الشعري:

القصيدة من مجزوء بحر الرمل:

يا عظيمًا قد تجلّى -- كل مجلّي له مجلّي
أنت مبدي كل بادٍ -- أنت أبدي أنت أجلى
حسبك الباري تعالي -- أن نرى عنده مثلاً
كل حسنٍ مستعازٍ -- من جمال قد تدلى
أي حسن أي حسن -- غير حسن قد تعالي
كنت قبل اليوم صبا -- أسأل المحبوب ميلاً
فأزال السر عني -- فبدا لي الفصل وصلاً
زادني القرب احتراقاً -- فأنا بالوصف أصللاً
عجبي من عشق نفسي -- ما أحببت غير أصللاً
ليس تشببي -- وغرامي إلا إلا
أنا سؤدي أنا سلمى -- أنا هند أنا ليلى
أنا بدر أنا شمس -- أنا صبح قد تجلّى
أنا نور أنا نار -- أنا برق ضياء ليلاً
أنا كأس أنا خمير -- أنا أسقي أنا أملاً
كتب العشق زورا -- في فؤادي فهو يتلّى
كل يوم كل حين -- كل أنٍ فهو يؤملاً
ما نسيت الدهر وقتاً -- قد تقضى بالمصلاً
بين أناس بمهارة -- وغزال قد تحلّى
كل نعماً كل لذيذ -- ونعيم الوصل أحلاً

الستر الفصل وصلا

القرب احتراقاً أصلا

عشق نفسي

2- تيمة التراث:

يستنتق الشاعر التراث باستخدام لغة متعددة المستويات، منبئية وفق تصور فني خالص بما يشكل طريقة في فن القول والكتابة، استجمعت لدى الأمير عبد القادر وتهيأت له أسباب ذلك، فهو صاحب مسلك شعري تتجلى فيه خصوصية البداوة والروح الدينية والثقافة التراثية الموعلة في فهم خصائص العربية وأساليب الشعر القديم.

ونجد هذا المذهب في الكتابة الملح دوما في شعر الأمير في كليته في: صيغ التكرار بالتعداد (تعداد الأسماء للأماكن، تعداد الحالات والمفارقات بأوصاف تنطبع على الذات وترسم حالة نفسية خاصة)، بالجناس (تحويل وتحويل الكلمة تساعد على ربط حلقات التوازي في النص وتوفق في رسم الحالة الشعورية باتساق وانسجام لفظي جيد) والمفارقة، بالتأكيد والمشاهدة (وضع متشابهات لفظية تدل على تحوير البيت الشعري والتجديد فيه بدل الاكتفاء بعناصر البيت الشعر القديم التي تعتمد على وسائل تشبيهية مقارنة).

العودة إلى النص القديم في الغرل وخصائصه الشعرية في القصيد العربي القديم سيما العصر الاموي منه:

تشبيبي غزلي

سُعدى سلمى هند ليلي

بدر شمس صبح

نور نار برق ضاء ليلا

كأس خمر أسقي أملا

3- تيمة الزمن ومقولة الاتصال: لغته شأها شأن لغة القصيدة متعددة التحولات منسجمة مع تجربة القائل، وتتساق مع غرضية الموضوع.

العشق زورا فؤادي يتلى

يوم حين آنٍ يُملا

الدهر وقتنا تقضى لمصلا

أنس بمهارة غزال

نعما ونعيم الوصل

بلوأي

هي رؤى تنمي عن شخصية ثقافية اكتملت أدواتها، وأعدت صحوة الشعر ومنابعه الأصلية، ولعل العناصر الشعرية التي شكلت بنية هذا النص تدل على هذا التكامل والارتباط بروح الشعر مع شخصية اجتمعت عندها هذه الخصائص، فشكلت طريقة في الشعر خاصة.